مآ أنندا مايي

من هي مآ أنندا مايي (Ma Anandamayi) ؟

ولدت نيرمالا سونداري في 30 أبريل 1896 في قرية خيورا ببنغال (تقع في بنغلاديش حالياً)، وهي من أبرز وأهم القديسات والمعلمات الروحيات في الهند في القرن العشرين. يعني اسم «أناندا ماي» في اللغات الهندية «المفعمة بالبهجة أو السعادة الإلهية»وهو لقب أطلقه عليها أتباعها في عشرينيات القرن الماضي لوصف حالتها الدائمة من السلام الإلهي والنشوة الروحية لم تلق تعليماً مدرسياً أو دينياً رسمياً، لكنها ظهرت بمستوى مذهل من الوعي والصفاء الروحي منذ صغرها عُرفت بحكمتها العميقة وقدرتها على توجيه آلاف الباحثين الروحيين بغض النظر عن انتمائاتهم الدينية أو الطبقية وقد وصفها زعماء روحيون كبار بأنها «أكثر زهرة إنجابية مثالية أنتجتها أرض الهند»، كما كان من بين أتباعها ومستشيروها شخصيات سياسية بارزة مثل رئيسة وزراء الهند السابقة أنديرا غاندي، وقد توفيت في 27 أغسطس (آب) 1982 عن عمر يناهز 86 عاماً في مدينة دهرادون الهندية، ودُفنت في ضريح خاص (سامادهي) بمدينة هاردوار على بانكس نهر الغانج، والذي لا يزال حتى اليوم مزاراً روحياً مهماً

تُعدّ الحكيمة الهندية مآ أنندا مايي (Ma Anandamayi) ظاهرة روحية فريدة، إذ عاشت حياتها كأم وربة منزل رغم بلوغها أعلى مراتب الصوفية والإشراق دون أي تعليم مدرسي أو قراءة للكتب المقدسة ، تزوَّجت في سن الثالثة عشرة (عمر 12 عاماً حسب العادات) من «رماني موهان» الذي عُرف لاحقاً بأحد مريديها المخلصين، بدأت أطوار تجلياتها وممارساتها الروحية تظهر بوضوح في مطلع شبابها، حيث دخلت في حالات متواصلة من الاستغراق الإلهي والإنشاد التلقائي وعلى عكس الزهاد المنعزلين، عاشت «أنندا مايي» في وسط الناس ومع المريدين الذين تقاطروا عليها من كل طبقات المجتمع، ولم تفرض عقيدة ضيقة أو ديناً بمعزل عن الحياة.

وأبرز تعاليمها وفلسفتها هي :

*وحدة الوجود والحياة: رأت أن الحياة والدين شيء واحد لا ينفصلان، وأن كل عمل أو تفاعل يومي يجب أن يُؤدى بصدق ومحبة خالصة كنوع من العبادة.

*السعي نحو المطلق: ذهبت إلى أن الإنسان بطبيعته مجبول على الشوق للخلود والحقيقة المطلقة، ومحاولاته المستمرة لتخطي النقص هي دليل خفي على توقه للوصول إلى الله.

*الخدمة والذات: اعتبرت أن خدمة الآخرين هي في الحقيقة خدمة للذات الإلهية الكامنة في كل كائن حي.

من أقوالها وحِكَمها :

»من واجب الإنسان أن يتأمل في الله الذي هو السلام بذاته، وبدون الالتجاء إلى ما يُعين على تذكر الله، فلا يمكن لأي سلام أن يتحقق.«

»الشخص الحكيم هو من لا يرى أحداً غريباً عنه، بل يرى الكل، في جوهره، هو ذاته.«

»حين يندمج الداخلي والخارجي بفيضان دموعك الصادقة، ستجد تلك التي ظللت تبحث عنه طويلاً.«

»على المسافر الروحي ألا يدع عقله يتشتت بأي شيء، بل عليه المضي قدماً بعزم وثبات نحو غايته .«

عُرفت مآ أنندا مايي (Ma Anandamayi) في التراث الروحي الهندي بكثرة القصص والمعجزات العفوية التي رافقت حياتها، ولم تكن تتعامل معها كخوارق للتفاخر، بل كأحداث طبيعية تجري في حضور إشعاعها الروحي. ومما روي عنها:

*واقعة الإطعام المعجزة: يُحكى أنه في أحد التجمعات الكبيرة (الأشرم)، نُفذ الطعام تماماً بينما كان عدد الحاضرين يفوق التوقعات بكثير. طلبت أنندا مايي ببساطة الكشف عن القدور المتبقية، فوجدوا أن الطعام يتكاثر بطريقة عجيبة وظل يكفي الجميع حتى شبعوا تماماً دون أن ينقص.

*الشفاء التلقائي: قيل إن الكثيرين ممن زاروها وهم يعانون من أمراض مستعصية أو آلام نفسية حادة، كانوا يشعرون بسلام غامر يزيل آلامهم بمجرد الجلوس بقربها أو النظر في عينيها، دون أن تستخدم أي طقوس أو أدوية.

*فهم لغات الحيوانات: روى مريدوها أنها كانت تتعامل مع الطيور والحيوانات البرية (كالقرود والنمور في الغابات التي كانت تتردد عليها) بثقة تامة وكأنها تفهم لغتها وتخاطبها، وكانت تلك الحيوانات تقترب منها بأمان غريب ولا تؤذي أحداً بحضورها.

*الذاكرة الشاملة منذ الطفولة: كانت تصف أحداثاً دقيقة جرت معها وهي لا تزال رضيعة في مهدها، وتتحدث عن تفاصيل ولادتها ووعيها المبكر بكل ما دار حولها قبل أن تتعلم النطق، مما أذهل عائلتها وكل من حظي بمعرفتها لاحقاً.

ومع كل ما تقدم فـ مآ أنندا مايي (Ma Anandamayi) لا تنتسب إلى أي مدرسة فلسفية أو طائفة دينية محددة، ولا تُصنف كفرع من البوذية أو البراهمية التقليدية المذهبية. في الثقافة الهندوسية، يُنظر إليها كظاهرة روحية «تلقائية (Svatantra) «تتجاوز الأطر والمذاهب البيروقراطية أو الفلسفية المكتوبة. ويمكن فهم وضعها العقائدي والنظمي عبر النقاط التالية:

*الهندوسية الفيدية الواسعة: إذا اضطر الباحثون لتصنيفها ضمن الفضاء الأوسع، فهي تنتمي جذرياً إلى التراث الهندوسي السناتانا درما (Sanatana Dharma) أي "الدين الأبدي أو السرمدي"، وهو الإطار الأوسع للروحانيات الهندية القديمة.

*الرفض التام للمذهبية الضيقة: لم تكن تتبع مدرسة "فيدانتا" معينة بمعلمها البشري، ولم تكن تمنح أتباعها "مانترا" أو طريقة تلقين مذهبية محددة، بل كانت تؤكد أن كل الأسماء والأشكال والآلهة هي تعبير عن الحقيقة المطلقة الواحدة.

*القبول الشامل للجميع: فتحت بابها للجميع بغض النظر عن ديانتهم؛ فكان يأتي إليها الهندوس والمسلمون والمسيحيون والسيخ والبوذيون، وكانت تخاطب كل شخص من منطلق لغته وعقيدته الخاصة، معتبرة أن كل الطرق والديانات الصادقة تؤدي في النهاية إلى الإله الواحد.

علم مآ أنندا مايي (Ma Anandamayi) لم يكن تلقياً عن أساتذة أو بشراً (دراسياً أو تقليدياً)، بل كان علماً ذاتياً إشراقياً ينبوعياً، وُلد معها وتفجّر من الداخل دون أي واسطة بشرية أو تعليم مدرسي. في سيرتها الروحية، يُجمع دارسو حياتها وعارفوها على الطبيعة الفريدة لمعرفتها:

*غياب التعلم البشري: دخلت المدرسة لفترة قصيرة جداً لا تكاد تذكر (عاماً واحداً أو أقل في طفولتها المبكرة)، ولم تقرأ الكتب المقدسة أو الفلسفية الهندية (كالـ "فيداس" أو "أوبانيشاد") ولم تدرس على يد أي أستاذ روحي قط.

*التعليم الذاتي والإلهي (الفيض): كانت تؤكد دائماً أن كل ما تصدر عنه من حكمة وعلم ومعرفة ليس محصلة لاكتساب خارجي، بل هو انبثاق داخلي تلقائي من الحقيقة المطلقة ذاتها. إذا سُئلت عن مسألة عميقة، كان الكلام يجري على لسانها كفيض فوري ومطابق للحقيقة المطلقة دون تفكير أو تهجّي.

*القدرة اللغوية والعقلية المذهلة: على الرغم من أميتها الظاهرة في التعامل مع العلوم الأكاديمية، كانت تدهش العلماء والفلاسفة الكبار والمثقفين الحاصلين على شهادات عليا من جامعات الغرب والهند بـ دقّة إجاباتها وعمق تحليلاتها الروحية والفلسفية، وكانوا يجدون في إجاباتها حلاً لمعضلاتهم الفكرية والعقائدية التي عجزت عنها الكتب.

*حالة الوعي الشامل: كان وعيها يعكس فهماً كلياً للكون والحياة وكأنها "كتاب مفتوح" تقرأ منه مباشرة، واعتبر العارفون حالتها تجسيداً لما يُعرف في الفلسفة الهندية بـ "الـچنانا" (المعرفة المطلقة التلقائية) التي لا تحتاج إلى واسطة أو تعلّم.

لم تكن مآ أنندا مايي (Ma Anandamayi) تمارس أي رياضة روحية تقليدية أو تمارين تأملية منظمة بعد بلوغها، فبعد ظهور حالتها الإشراقية الباكرة، لم تعد تمارس أي نوع من أنواع الرياضات الروحية أو التقشّف أو التأمل المبرمج؛ فقد كانت حالتها عبارة عن سريان إلهي دائم لا يحتاج إلى جهد أو تمرين. كما أنها لم تكن تزود مريديها ببرامج عملية جامدة أو تقنيات معينة (مثل يوغا محددة أو تمارين تنفس أو وصفات تدريبية)، بل كانت توجيهاتها ترتكز على اليقظة الحية والتذكر المستمر لله في تفاصيل الحياة اليومية.

*رفض القوالب الجامدة للمريدين: لم تكن تعطي المريد برنامجاً تدريبياً روتينياً (كأن تقول صلِّ كذا ساعة أو افعل كذا تمرين)، لأنها كانت ترى أن النفوس مختلفة والتقنيات الثابتة قد تحول العبادة إلى سجن شكلي.

*التركيز على العمل والمحبة: كانت تدفع كل شخص ليعيش بصفاء من خلال عمله الحالي، سواء كان طاهياً، أو ربة منزل، أو مديراً؛ فالحياة نفسها بأكملها هي الميدان العملي للترقي الروحي.

*تذكر الاسم الإلهي (ناما): كانت تشجع الجميع باستمرار على ترديد اسم الله أو تذكره بلا انقطاع وسط أي عمل يقومون به، معتبرة أن تذكر المطلق هو المفتاح الذي يطهر القلب.

*التوجيه التلقائي المباشر: بدلاً من البرامج، كان توجيهها يأتي متناسباً مع الحالة النفسية لمن يواجهها ساعة بساعة؛ كلمة صادقة، أو نظرة، أو تنبيه عفوي يفك عُقدة السائل الفكرية أو النفسية فوراً.

*الواجب كعبادة: كانت تؤكد أن أداء الواجب اليومي بإخلاص ودون تعلق بالنتائج هو أسمى رياضة عملية يمكن للإنسان ممارستها.

*المعنى الذي تقصده مآ أنندا مايي (Ma Anandamayi) لوحدة الوجود ليس نظرياً أو فلسفياً مجرداً كما عند فلاسفة الغرب، بل هو رؤية إشراقية حية ترى أن الوجود بأسره ـــبكل أشكاله وتجلياتهـــ هو تجسيد وتجليات لحقيقة إلهية واحدة لا غير.

ويمكن تلخيص معنى هذه الوحدة في النقاط التالية:

*الله هو الكل: رأت أن الله ليس كائناً منفصلاً يتربع في مكان عالٍ خارج الكون، بل هو الجوهر الحقيقي لكل شيء. الشجر، الحجر، البشر، الكائنات، والأشياء المادية ليست سوى أشكال وظلال مؤقتة لواقع إلهي واحد ومطلق.

*إلغاء الثنائية (الفرق بين الداخل والخارج): في حالتها الروحية، لم تكن ترى فرقاً حقيقياً بين "الذات" (أنا) و"الآخر" (المحيط). كل ما تقع عليه العين أو يلمسه الإحساس هو في جوهره امتداد لنفس الحقيقة الإلهية، ولذلك قيل إنها كانت ترى الكل كأنه ذاتها.

*تعدد الأسماء والأشكال: كانت توضح أن الاختلاف الظاهري بين الكائنات والديانات وحتى الأحداث الكونية هو اختلاف في "الأسماء والأشكال (Nama-Rupa) "فقط، تماماً مثل تفرع الأمواج المختلفة التي تعود في النهاية وتتكون من ماء البحر الواحد.

*الحياة كإله متجلي: بناءً على ذلك، يصبح التعامل مع أي إنسان أو حيوان أو جماد محكوماً بالمحبة المطلقة والاحترام، لأن الإهانة أو الأذى الموجه لأي كائن هو في الحقيقة مساس بالحقيقة الإلهية الكامنة فيه.

و يقترب مفهوم مآ أنندا مايي (Ma Anandamayi) لوحدة الوجود بشكل مذهل وعميق من أطروحات الشيخ الأكبر ابن عربي، بينما يشترك مع الفيلسوف ملا صدرا في الثمار العملية والروحية، فعلى الرغم من اختلاف البيئات واللغات والمصطلحات، فإن جوهر التجربة الإشراقية يكاد يكون واحداً وتتجل المقاربة مع ابن عربي في النقاط التالية:

*الحق والخلق: يرى ابن عربي أن الوجود الحق والواقعي هو الله وحده، وأن المخلوقات ما هي إلا مظاهر ومجالٍ وتجليات لأسمائه وصفاته. وبالمثل تماماً، كانت "أنندا مايي" تقول إن الكائنات والأشياء ليست موجودات مستقلة، بل هي أشكال وظلال مؤقتة تبطن الحقيقة الإلهية الواحدة الفردة .

*الكون مرآة: استخدم ابن عربي رمزية "المرآة" (الكون مرآة للحق)، وكانت "أنندا مايي" تستخدم التشبيه ذاته حيث ترى العالم بأسره مرآة عاكسة للوعي الإلهي الأوحد.

*وحدة الأديان والشكل والمضمون: نادى ابن عربي بقبول كل تجليات التعبد (قصيدته الشهيرة: لقد صار قلبي قابلاً كل صورة..)، وتماشت "أنندا مايي" مع هذا المنحى تماماً برفضها التعصب المذهبي وقبولها لمريدي كل الطوائف معتبرة أنهم يبحثون عن إله واحد بأسماء مختلفة.

ويقترب مفهومها أيضاً من «الحكمة المتعالية» عند [ملا صدرا] في النقاط التالية:

*التشكيك في الوجود (الدرجات): وضع ملا صدرا نظرية أن الوجود حقيقة واحدة مشككة (أي ذات درجات متفاوتة في الشدة والضعف كالنور). "أنندا مايي" كانت ترى الوجود كذلك؛ فالجماد والنبات والبشر يمثلون درجات متفاوتة من تجلي الوعي الإلهي ونوره، وليست كائنات منفصلة في ماهيتها.

*الحركة الجوهرية للروح: آمن ملا صدرا بالترقي الذاتي المستمر للروح نحو الكمال المطلق، وهو ما يفسر فلسفة "أنندا مايي" في أن النزوع البشري الدائم لتخطي النقص والآلام هو حركة فطرية لا تهدأ إلا بالوصول إلى المنبع الأول.

وطبعاً لا بد من الإشارة إلى فارق أساسي بين أنندا ماني وابن عربي وملا صدرا ، فبينما صاغ ابن عربي وملا صدرا هذه الرؤية الأنطولوجية (الوجودية) عبر منظومات فلسفية، ومصطلحات معقدة، وأدلة عقلية ونصوصية مكتوبة، كانت أنندا مايي تنطق بهذه الحقائق بشكل تلقائي وعفوي وبسيط، نابع من تجربتها الشهودية الحية دون حشو فلسفي أو تنظير مدرسي مسبق .

لمن يريد التوسع كتاب إنجيل الأم المغبوطة: حكيمة الهند مآ أنندا مايي - سيرتها، تعاليمها، معجزاتها وأمثالها للباحث اللبناني لويس صليبا وهو أول كتاب عربي متكامل يوثق سيرة هذه الحكيمة الهندية ومعجزاتها ومنتخبات من حِكَمها وتعاليمها